فصول ملخصة في الفلسفة الألمانية

٢٢ – تطور الحركة الفلسفية في ألمانيا

الناحية السلبية من مذهب نيتشه

الانسان

للأستاذ خليل هنداوى

بين اليهود نشأت ذرية الكهان ، وبينهم هبت ثورة العبيد ، واندلعت نيرانها على المبادئ الأرستقراطية . نقموا على المبادئ القائلة بأن الصالح والشريف والقوى والجميل والسعيد هم الذين تحبهم الآلهة ، وعملوا على دحضها بمنطق قوى . قالوا إن الضعفاء والعجزة والأشقياء والبؤساء هم الصالحون وحدهم ... وإن المتألمين والتعساء والمرضى والقبيحين هم وحدهم المقربون إلى الله ، ولهم وحدهم أعدت مساكن النعيم . أما النبلاء والجبارون الأقوياء فهم الجاحدون القاسون ، وهم في تلك الدار المخذولون والأشقون

جاءت المسيحية فورثت عن اليهودية هذا الميراث . وأكمل الكاهن المسيحي ما بشر به الكاهن اليهودي . وها غبرت عشرون قرناً وهو الظافر المنتصر . فكان أول مشهد من ذلك الانقلاب مسألة النفس والارادة الحرة المختارة . وفي الحقيقة لا نفس منسلخة عن جسد ، ولا وجود للارادة الحرة ، وقد تكون إرادة بلا حرية ولا اختيار . وإنما هنالك إرادات قوية تقوم بأعمال ذات قيمة ، وإرادات ضعيفة عملها ضئيل ، آراء كالرعد يقصف ، هي في الحقيقة فكرة واحدة ترتدى أثواباً مختلفة . فالرعد ليس بشيء ذاتي يقدر على القصف وعلى غير القصف . إنه رعد حين يقصف ؛ كذلك شأن مجموعة القوات المتجلية في الرجل القوى لا تبدو ولا تظهر إلا بهذه المظاهر . والعقل الشعبي استطاع بوساطة الافتراض الاختياري أن يفرق بين الكائن والحادث وبين الارادة ومظاهرها ، وافترض أن وراء أعمال البشر ووراء ما تأتيه إرادة القوة كائناً أو نفساً هي علة هذه الأعمال . وهذه النفس هي جوهر حر يظهر كيفما يشاء ، ويعمل كما يشاء . وهذا الذي تتلوه « حراً مختاراً » أصبح العبد يساويه بالسيد ، بل يجعله متفوقاً عليه . وهكذا أصبحت قيمة الفرد لا تتوقف على ما يتكون فيه من مجموعة قواته . وبذا زال عندهم تفضيل القوى على الضعيف بفضل منطقهم « لأن القوى يعمل بحسب قواه وهو خاطئ ، لأن عمله بحسب قواه عمل سيئ . والضعيف يعمل بحسب ضعفه وهو ذو حق ، لأن عمله بضعف عمل حسن . فالضعيف إذن هو خير من القوى » ويصف نيتشه وصفاً مؤثراً تلك العوامل التي لجأ إليها العبيد الذين تغلي صدورهم غيظاً وموجدة ، ليحطوا من قدر الأسياد ، وليحولوا أنفسهم الى شهداء وقديسين

هذا هو المثل الأعلى للعبد . فهو يحيا بتلك الدعوات المعزية التي ابتدعها . ولكن أثقال ضعفه الراسية على ظهره لينوء بحملها فيتألم ويشكو ويتململ ، فيجيء الكاهن لا ليبرئه من دائه ، ولا ليقطع أسبابه كما يصنع الطبيب . يجيء لينمى الصابر ما يحسه من ألم وشقاء ، وليبث فيه « مواد مخدرة » ترقد الألم ولا تمحوه . يغذي مريضه ويعطيه مادة تضعف فيه القوة الحيوية والعقلية ، يأتي الزهد والتقشف والبلاهة في نفسه وجسده خدراً إلى حين ، فيذهل عن ألمه بل يوشك أن ينفك عن كل إحساس فيه . فيغدو هذا الرجل المنحط « قديساً » ، وقد يحيط الكاهن بالرجل فيجعل منه آلة تستغرق كل انتباهه وتجعل منه شيئاً يتحرك بذاته ، ويصرفه عن التأمل في نفسه والتفكير فيها ، ويلهيه بالانكباب على بهجة حقيرة يسهل عليه نيلها محبة القريب والمحبة والمساعدة المتبادلة ، ثم يعمل الكاهن على أن يصرف « قطعانه المريضة » عن آلامهم الذاتية

وإزاء هذه العوامل التي اختلقها عوامل أخرى ابتدعها لمصلحته الخاصة . عوامل خطرة مؤثرة ، تنطوى على سموم تنسى المتألم آلامه وتفنى فيه قوته الحيوية . وهذا السم هو « الايعاز بالخطيئة »

أما أصل الخطيئة فسببه دافعان ولدا اختياراً في قلب الانسانية . وهما الضمير الفاسد ، والايمان بدين مكتوب على الانسان لله . والضمير الفاسد – عند نيتشه – هو نتيجة تشويش في النفس عميق . تسيطر على الانسان يوم كان وحشاً متزلاً ، ثم انقلب عضواً رئيسياً في قطيع الأحياء ، والحكومة هل هي

إلا – كما يحتمل الذهن – ظلم مرعب فرضه الأقوياء على الضعفاء ، وفجأة وجد المغلوبون على أمرهم أن أسباب الوجود عندهم مقلوبة رأساً على عقب ، وألفوا أنهم أصبحوا لا يستطيعون أن يتبعوا بحرية واختيار تلك الغريزة الطبيعية التي كانت تسوقهم . فظلوا يبذلون جهودهم بينهم وبين أنفسهم ليقودوا أنفسهم بفطنة ، ويضغطون على إرادتهم خشية أن تجازف بالاساءة إلى الأسياد ، ويعملون بتعقل وتأمل . ولكن هذه الغرائز هي جزء من قوة لابد لها أن تبدو مظاهرها وآثارها . فإذا كتب على هذه القوة أن يضغط عليها حيناً حتى لا تخرج عن نفسها بأي دافع ما ، فهي ولا بد مستحيلة إلى قوة خفية تعمل عملها في الباطن . وعلى هذا التبدل وعلى مثل هذا التحول وُلد « الضمير الفاسد » . فهو وليد هذا الضغط الباطني الذي تصير عليه الغريزة الطبيعية في الانسان . وهو كالوحش السجين الذي عضته الوحشة ونازعه حنينه إلى العرين والحرية والصحراء ، ينهش جسمه بين قضبان القفص . كذلك الانسان الابتدائي الأهلي السجين يتألم بنفسه ، وغريزة الحياة الكامنة فيه المقيدة بمظاهرها الخارجية أمست تبدو بحالة هيجان باطني

وفكرة الدين المكتوب لله على الانسان هي فكرة قديمة مترددة في الشرائع القديمة . ففي العصور الأولى كانت كل قبيلة تؤمن بأنها مدينة بخيراتها الحاضرة للذريات السابقة . وأن الأجداد الذين قضوا يصيرون بعد الموت أرواحاً قوية تتابع تأثيرها في الأحياء وتواصل إحسانها إليهم . ولكن كل إحسان لابد أن يُبذل ثمنه . وهكذا تولد في عقول الناس أنهم مدينون بشيء لآبائهم وأجدادهم . وهم مضطرون إلى تقديم الضحايا لهم جزاء وفاقاً على دفعهم للأذى والضر عنهم . ومن هنا نشأت عبادة الأجداد في فجر كل مدنية ، ثم تطورت هذه العبادة قليلاً قليلاً . فالاحترام الذي كان يكنه الانسان لأجداده جميعاً مانئ ينقبض حتى ارتكز في الجد الأصلي للسلالة ، ثم نزل هذا الجد بدوره منزلة الآله . وكلما كان الآله قوياً مخيفاً كان شعبه الذي يجله ويعبده أكثر فلاحاً وتقدماً ، وفي الظروف التي تنمو فيها عظمة الآله ينمو أيضاً الشعور بذلك الدين المفروض في سبيل احترامه وتزداد خشية الانسان من قصوره في العمل لربه .

وبوساطة هذا المنطق ألفينا أن عاطفة خضوع الانسان لله بلغت الدرجة القصوى يوم ظفر إله المسيحية بالأوثان . ودانت له الأرباب وعسكر في مناطق بارزة من أوروبا . فآمن الانسان إذ ذاك بأن الدين قد تضخم . حتى أصبح أجلّ من أن يُوفّى . وجد نفسه أنه مدين عاجز لا يملك شيئاً والدائن هو الله . فهو والحالة هذه هدف للقصاص الفظيع . والانسان في شدته هذه يجري عن وسائل كثيرة ليطرح عن ظهره هذا الدين الثقيل . فلام الانسان الأول الذي استحق لعنة الآله . فابتدع « الخطيئة الأصلية » وجرم الطبيعة ، وأنكر الغرائز الكامنة فيه ، ونظر إليها كجرائم شر وشقاء ، ولعن الوجود نفسه . وجعل رجاءه كله في العدم وفي حياة ثانية . وفي النهاية أعطى المسألة التي ناء بها ظهره طويلاً هذا الحل الغريب ، إن الدين المفروض على الانسان من قبل الله هو دين لن يقدر على أدائه الانسان ، والآله وحده يفي عن الآله . فوجد الآله أن يضحي بنفسه في سبيل حبه للانسان واستنقاذه من دين مكتوب عليه . فتمثل إنساناً وقرّب نفسه قرباناً . وبهذا الفضل الذي أدّاه اشترى نفوس الدين راغم جديرين برحمته ورأفته

يتبع — خليل هنداوي

الليسيه فرنسيه

القسم المصري

إجابة لرغبة العائلات المصرية الكريمة قررت إدارة الليسيه إنشاء قسم مصري ممتاز تدرس فيه جميع مواد الثقافة العربية والثقافة الفرنسية بطريقة تمكن التلميذ المجتهد من الحصول على البكالوريا المصرية والبكالوريا الفرنسية في وقت واحد وتفتح أمامه أبواب الجامعة المصرية وأبواب جامعة باريس

وقد أعدت الليسيه جميع المعدات لهذا القسم المصري الممتاز وستبدأ الدراسة في أول أكتوبر ويستطيع آباء التلاميذ أن يطلبوا ما يهمهم من البيانات منذ الآن من جناب مدير الليسيه من ١٠ — ١٢ صباحاً ومن ٥ — ٧ مساء بمكتبه في الليسيه بشارع الحوايانى رقم ٤